

عشرة أيام في الشام (*)

الاستاذ علي الطنطاوي

يمضي المسافر أياماً طويلاً لا يقطع فيها إلا أذرعاً من طريقه ، ثم يجتاز القراسخ والأميال في ساعات ، ويمش الرء سنين لا يفهم فيها من أسرار الحياة ، ولا يرى من معالم السكون إلا الأقل ، ثم يرى في لحظة أخى العالم ، ويفهم أعنى الأسرار ، وكذلك كان شأني :

سرت على طريق العمر قريباً من أربعين سنة ، فلم أدرك من حقائق الحياة حولي ، ولم أعرف من خلائق الناس ، مثل الذي أدركته وعرفته في هذه الأيام العشرة التي (طرت) فيها نجاة إلى دمشق ، ثم عدت طائراً منها ، وعلى دين أكاد اعجز عن قضائه ، وورائي عدو ألح على يابذائه وهجائه ، وذو سلطان غضبان عليّ لا أعرف السبيل إلى استرضائه ، ولكنني مع هذا عدت راجحاً لأنني تعلمت قصصاً ولا من كتاب الحياة كنت أجهلها ، وهذا قليل من كثير مما تعلمت :

- ١ -

كان أقصى علمي بالصديق أنه الذي يألني وآلته ، ويأنس بي وآنس به ، ويسأل عني إن غبت ، ويؤزوني إن حضرت ، ويستقبلني إن زرته ، ويصني إن حدثته ، وكنت أعتز بصداقات رجال أحسبني نلت بهم ما تمناه المأمون وهو خليفة وعجز عنه ، وماعده الأهلون تالك المستحيلات ، وحشروه مع النول والشفاء ولم أحتج إلى واحد منهم كي أجربه ، فلما كانت هذه التجربة (تجربة دخول الانتخابات) رأيت أكثر هذه الصداقات كأنها بقايا تلوج الشتاء ، تحت شمس الصيف ، سرعان ما يذهب بياضها وتقاؤها ، ثم تذوب ثم تجرى على التراب فتكون سواقي عكرة تنحدر إلى الحنيض ، بعد أن كانت في الملاء . ما بقي بين يدي من هذه المودات ، إلا كالذي يبقى من هاتيك التلوج على صخور الجبل

(*) تسمية لعمدة (تلوج حرز) في المند الآتي إن شاء الله .

لقد تنكر لي رجال كانوا رفاق في السفر وفي الحضر ، وإخواني في الصبا والشباب ، وأعرضوا عني إيثاراً للراحة ، أو هرباً من إغضب الحكومة ، أو فراراً من المشاكل ، وجسوا عن مساعدتي أفلاماً لهم والسنة طالما شددت أزرها ، ودافعت عنها بقلمى ولساني ، وأمسكوا عن نصرتي أكنفاً طالما امتدت إليها - مصافحة مؤازرة - كني . وقالوا ، ما لنا ولرشح نساعدك على الحكومة ، وتقويه عليها ، وهي ذات السلطان ، ويدها المطاء والحرمان ؟

ونسوا أني موظف في الحكومة ، لست عدواً لها ، ونسوا عهد الإخاء ، وأيام الصفاء . هذا وما سقطت الحقلة التي لا يرجي لها قيام ، ولا كنت تاجراً أفلس ، ولا موظفاً عمزل ، ولا صحبياً أزمناً ، ولا حكم على بسجن أو نفي ، وبقي عيالي من يمدى أمانة عند الصديق ، وإعناهي تجربة هيئة ، فكيف لو كان شيء من ذلك ؟ وعلى من أعتمد بعد اليوم ؟

سأعتمد على الله ثم على هؤلاء الذين وجدت من إخلاصهم ، وحبهم ، وعطفهم عليّ ، أيام المسرة ، ما هو أئمن عندي من النيابة والوزارة ، ومناصب الأرض كلها . ولن أنسى أبداً أن هؤلاء هم الذين أبقوا على القليل من تقني بهذا الإنسان وأقذوني من أن أكون ككفر به ككفر أركباً تركيباً مزجياً كحضر موت ... لا يستطيع أخونا عبد المنعم خلاف أن يحمله أو يزيه ولو أنزل عليه في دينه الجديد كتاب آخر ، وأن أومن بأن الكلاب والحجير أوفى من الناس وأحفظ للوداد .

- ٢ -

وكنت أحسب كل منظاهر بالتقي تقياً ، وكل لاهج بذكر التصوف صوفياً ، وكل مزهد في الدنيا زاهداً ، وكل داع للمبادة عابداً ، وأحبهم جميعاً وأراهم أهل الدين ، وأرباب الإخلاص ، ولا يبلغ وهمي أن يكون في الألف منهم منزه واحد أو خداع ، فلما جرت بهم وجدت ...

لا أحب أن أقول ماذا وجدت منهم ، لأنني أظلم الملاء إذا أخذتهم بجريرة نفر تسلطوا على (رابطة الملاء) التي هملنا لظهورها وباركنا يوم إنشائها ، وسيرها على هوام ، وكفوا أيدي الملاء الأجلاء من أعضائها

لا أرى من قبل إلا الستار اللعاب الذى يخفيها

— ٤ —

وكنت أقرأ مهاترات الصحف الحزبية في مصر والشام ، وما تحوق من تهم ، وما نصب من فري ، فأرى المبالغة ظاهرة ، ولكنى أقول أنه لا دخان من غير نار . ما كنت أظن أن القحة في الشرب تبلغ برجل أن يفترى كذباً يعلم أنه لن يصدقه أحد ، ولا يقبله عدو فضلاً عن صديق ، وأحسن الظن بالبشر ، فاحسب أنه لا يزال في نفوسهم بقية من الوفاء والحياء ، فهم يقدرون الاخاء ، ويستحيون من اختراع الكذب المحض ، فلما قرأت ما كتب في الصحف عنى وعن غيرى وجدتنى قد وضعت ظنى الحسن في غير موضعه وأنا رجل في نقائص كثيرة ، وعيوب جمّة ، ويستطيع من يكتب عنى أن يعرض لها ، فيكون قد نال منى وبلغ ما أراد من هجائى ، اما أن تبلغ بكاتب قلة الفهم ، والجهالة بأصول الشتم ، إلى أن ينسى عيوبى كماها ثم لا يلقى إلا أشياء أنا أبعد الناس عنها يلصقها بى فيضحك الناس عليه ، فهذا يدعو إلى الأسف على ضياع (فن الهجاء) في هذه الأيام .

لم نجد هذه الصحف ما تقوله عنى إلا أن تعرض تبريضاً غامضاً بسيرتى في العراق ، وتقول أنى أسأت بقلى لوطنى لأنى انتقدت في الرسالة ما كان في احتفال الجلاء من تكشف وبلاء ، وتنقل عن مجلة تصدر في دير الزور أنى كنت من صنائع الفرنسيين أما سيرتى في العراق ، فإن هؤلاء يملون أن الرسالة تقرأ في العراق أكثر من جرائدهم ، وأنا استعاف في الرسالة كل من يعلم عنى مخزية في العراق أن ينشرها في الصحف أو يبيت بها إلى هؤلاء الخصوم . وماذا صنعت في العراق ويحكم ؟ هل فجرت ؟ هل سرقت ؟ هل كنت جاهلاً في العلم الذى أدرسه ، أو مهملًا في العمل الذى أمارسه ؟ وهل كان في كل من قدم العراق مدرساً ، من هو أحفظ لوده ، وأكثر (بعد الدكتور زكى مبارك) كتابة عنه منى ؟

أما صلتى بالفرنسيين فن كان يعلم أنى عرفت فرنسيًا غير من كان معلمًا أو مستشارًا في الوزارة قليلاً ، ومن كان يعلم أنها خلت سنة مدرسية من نقل مرتين لخلافى مع الوزارة — وكانت الوزارة

ولكن أقول إن الصالح المصلح ، والعالم العامل ، هو من يجعل هواه تبعاً لحكم دينه ، ويضيع منفعتة إن كان فيها مضرة أمته ، ويؤخر نفسه ويقدم من هو أصلح منه ، ويحكم الشرع في دقيق أمره وجليله ، وظاهره وخفيه ، أما تكوير العمة ، وتطويل اللحية ، وحسن الكلام ، وسائر هاتيك الظاهر ، فهو آخر ما يستدل به على الصلاح وهو أهون شئ عند الله الذى لا ينظر إلى الصور وإنما ينظر إلى السرائر ، وعند الناس .

— ٣ —

وكنت أكبر هؤلاء الذين وقفوا أنفسهم على الجمعيات الخيرية ، وقصروا عليها جهودهم وآثروا خدمة أممهم على راحتهم ، وأراهم مثلاً في الاخلاص من أعلى الأمثال ، لأنى لا أسمع عنهم إلا الرغبة في إعلاء كلمة الله ، واحقاق الحق ، وإذاعة الخير ، فلما بلوتهم في هذه الأيام المشرة وجدت أكثر الجمعيات يديرها رجل أو رجال ، يستبدون بها ، ويسمون لها أعضاءها ممن يعرفونهم موافقين لهم ، ووجدت في هؤلاء ، على إخلاص بعضهم وأمانتهم ...

أقول ماذا وجدت ، فأضح في أيدى خصوم الإسلام سلاحاً جديداً يقاتلون به أهله ؟ أم أسكت عن بيان الحق ؟

السألة مشكلة ..

وأنا أسأل الله أن يجعل اليوم الذى نجد فيه رجال هذه الجمعيات قد نسوا نفوسهم وأهواءهم فحملوها كلها جمعية واحدة ، لها فروع وأقسام ، اذ لا يعقل أن تتمدد الجمعيات ما دامت تزعم أن غايتها واحدة هي خدمة الحق والخير ، وأن يكون القائمون على هذه الجمعية أمناء يملون أن لكل مسلم حقاً في أموالها يحاسبهم يوم القيامة على كل قرش منه أنفقوه في غير وجهه ، وعلى كل مقعد للجمعية قدموا عليه لنير مصالحها ، ودار لها أقاموا فيها سافة لنير خدمتها ، وسيارة لها ركبوها من غير ضرورة لركوبها ، وراتب أخذوه لأنفسهم أو أعطوه موظفًا أقاموه ، ما دامت المصالح العامة تسير بخير هذا الموظف ، وتضمن بخير هذا الراتب .

فهل نرى هذا اليوم ؟

إذا لم أره ، فخصبى أنى قد رأيت حقيقة هذه الجمعيات وكنت

فماذا بعد هذا ؟ وهل النائب أو الوزير أو الرئيس ، أسعد
نفساً ، وأهدأ بالامنى ؟ وهل السلطان أكبر من الأديب ؟ هل
النمان أعظم من النابضة ؟ وسيف الدولة أجل من التنبي ؟
والخديو عباس أخلد من شوقى ؟ وهل بينى الحكومات ويهدمها ،
وينشى الممالك ويدمرها ، ويرفع الأمم ويخفضها ، إلا الأديب ؟
فالى وللسياسة ، وأنا قد تشرفت بأن أسير فى ذيل ركب
الأدباء ، إلى سوح الخلود ؟

لقد كانت تجربة لن أعيدها ، ولو جرتنى إليها كل حروف
الجزر . لقد كانت تجربة تملت منها دروساً جمة ، أهمها أنى لست
مخلوقاً للسياسة ، إن السياسى هو الذى يقول للحجار : أنت غزال
بأذنين طويلتين ! وأنا لا أقول للحجار ، إلا يا حمار ، فإن غضب
فدونه (بردى) ا

على الانتطارى

(القاهرة)

هى المستشار ، أو بدم أنى مدحت فرنسياً بلسان أو قلم أو أعتته بيد
أو يعرف رجلاً كتب فى حب فرنسا مثل الذى كتبت ، حتى يوم
سقطت باريز وكانت الحرب مستمرة ، والفرنسيون حاكين ؛ فليقل
أما أنى أسأت لوطنى فى الرسالة فهذا هذيان لا يقبل من محموم .
وهل جرى قلم كاتب فى القديم والحديث ، بوصف محامن الشام ،
وتمجيد أيامها ، وتصوير جهادها ، بمنزل ماجرى به قلمى فى الرسالة
منذ سنة ١٩٣٣ إلى اليوم ، وفق فتى العرب ، واليوم ، والف باء ،
والزهراء ، قبل أن تنشأ الرسالة ، وهذا كلام ما كنت أظن أنى
سأقوله يوماً من الأيام ، ولكنى اضطررت إليه ، وأنا أعتذر إلى
القراء ، وأستغفر الله ، ولن أعود إلى مثله

- ٥ -

وبعد فأنا رجل قاض وأديب ، ولكنى لم أكن أعرف قبل
هذه الأيام قيمة ما أنا فيه ، ولقد حمدت الله أن انتهت هذه الأزمة
وعدت قاضياً أقول الحق أيا كان آثره ، وأديباً يشرك قراءه فى
نميته وبؤسه ، وخواطر نفسه ، وحديث يومه وأمه ، لا يكتم
عنه أمراً ، ولا يحسك سراً ، ونجوت من السياسة وشروورها .
ومالى وللسياسة ؟ وما لبست لها لباسها ، ولا أعددت لها
سلاحها ، ولا عرفت مسالكها ، ورب جاهل جال فى الطرقات ،
وصاح فى الواكب ، وولج وخرج ، وخالط الكبار والصغار ،
وحسب الأعلياء والأدنياء ، وعرف لسان كل غاطبه بلسانه ،
أقدر على السياسة منى ومن كل أديب فى الدنيا وكل عالم .
ورب رجل مثل هذا لا يموت حتى يصير اسمه ملء الأسماع ،
وملء الصحف ، ويكون علماً فى طريق التاريخ ، وآلاف مثل
فى (أخصاصهم) لا يدري بهم أحد !

ولكنى راض بما أنا عليه ، قانع به ، لا أبتنى أكثر منه ،
وهل أبتنى أكثر من مرتب كاف يريحنى من الكدح للميش ،
والسى للخبز ، وعمل لا يأخذ من وقى رذهنى إلا الأقل ، أقوم
به بما أستطيع من الأمانة ، فأخذ الراتب بما يمكن من الحبل ،
ثم أنصل بقراء أشاركم أفراسى وأراسى ، وبصحب آفس بهم
ويأمنون بى ، وأهل أخلص لهم ويخلصون لى ؟

وزارة العدل

التفتيش الادارى والكتاتى

إعلان

تملن وزارة العدل فقد دفترى الزواج
رقم ٨٧٥-٢٥ والطلاق رقم ٦٢٢٧٣. طبعة
عملية الشيخ عبدالمزىرحمن بركات. أذون
التجلى وأولاد الشيخ مركز أبو الطامير
وبكل منهما أحد - ول ثلاثة عشر عقدا
مقيدة والباقي به سبعة عشر وبرانيتها .
فكل من عرض عليه هذان الدفتران
أرثر عليهما بأى الطرق أن يعلم أنه لا
قيمة لهما وإن إستعمال الأصول
والبرانيات أو أحداث أى تغيير فى أصول
الاشهادات المحررة بعد تزويراً يمرض
مستملة للمحاكمة الجنائية ٧٦٩٠